تقنيات إنتاج الخطاب البليغ عند الجاحظ.
من خلال البيان والتبيين.

د. بصالح خديجة
م.ج. للحاج بوشعيب

مقدمة:

سارت البلاغة العربية في عصورها الأولى في اتجاهين مهمين:

-اتجاه اهتم بمعايير تفسير الخطاب البليغ وقواعده التي كانت بداياته في عصر التدوين مع الصحابة الذين اهتموا بتفسير بعض الكلمات القرآنية ووضع ضوابط وشروط تفسير الخطاب البليغ الممثل وقتذاك في القرآن الكريم. وقد يظهر هذا جليا في المصنفات التي عنيت بتفسير الظواهر اللغوية في كتاب الله العزيز من أمثال أبي زكرياء يحي بن زياد الفراء المتوفى سنة 207هـ صاحب كتاب (معاني القرآن) والذي تناول فيه ظاهرة التجوز والاتساع في الخطاب القرآني، ولا ننسى أبو عبيدة معمر بن المتنى المتوفي سنة 210هـ الذي تناول في كتابه (مجاز القرآن) بعض الأساليب البلاغية في القرآن الكريم. ومن مصنفات المتكلمين نذكر الخطابي أحمد بن محمد المتوفي 388هـ في (كتابه البيان)، والرماني علي بن عيسى (382هـ) في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) ، والبقلاني محمد بن الطيب(403هـ) في كتابه (إعجاز القرآن)، والشيخ عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في كتابيه (دلائل

الإعجاز، وأسرار البلاغة)، كل هذه المؤلفات يمكن تصنيفها ضمن الاتجاه الذي يهتم بمعرفة شروط الخطاب البليغ وأصول تفسيره وفهمه.

أما الإتجاه الثاني للبلاغة العربية فقد اهتم بدراسة معايير وتقنيات إنتاج الخطاب البليغ، وقد نشأ هذا الإتجاه مع نهاية عصر صدر الإسلام، عندما ظهرت الفرق والأحزاب السياسية والدينية وقد كان لكل منها خطباء يدافعون عن أرائها ومبادئها. وبعد فترة من الزمن، برز على الساحة المتكلمون من (المعتزلة والأشاعرة) الذين جعلوا قوانين الخطابة وأصولها فنا واتخذوا مسالك الجدول والحجاج صناعة وعلما، يلقنونه لمريديهم، وينشؤون المدارس التي يهيؤونهم فيها لتدريبهم على كيفية الرّد على الخصم، واستمالة الناس وإقناعهم[1]، وخير دليل على هذا ماورد على لسان الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) قائلا:«مر بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانه الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه، إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة، فقال البشر: أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا، ثم دفعه إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام: خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن القليل تلك أكرم جوهرا، واشرف حسبا، وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور...»[2]

ومن المتكلمين الذين ساهموا بوفاء في إثراء هذا اللون من الدراسات البلاغية نذكر: عمرو بن عبيد، أبو إسحاق إبراهيم النظام، ثمامه بن أشرس، وبشر بن المعتمرالمتوفي **210**هـ، لكمن الذي اعتنى

بأصول وقوانين إنتاج الخطاب البليغ، وواضع أسسه وقواعده هو الشيخ أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ المتوفى سنة(255هـ).

لقد قام الجاحظ بجمع إسهامات من سبقوه ومن عاصروه من الأدباء والبلاغيين ، بالإضافة إلى كل ما اهتدى إليه من حقائق بلاغية، حيث نظر إلى اللغة من زاوية وظيفتها، ونجاعتها في المجادلة، وقدرتها على التأثير في المتلقي وإقناعه، ومن هذا المنظور حدد مفهوم البلاغة، وماهي البيان، وضبط المقاييس الأسلوب لفصاحة النص وبلاغته، انطلاقا من فكرة التواصل، مما ولد في صلب نظريته الاهتمام بالخطيب، والمخاطب والخطاب.

وقد تأثر ابن الأثير بمقاييس (البلاغة الجاحظية) ويظهر من خلال استنتاجه أن مدار البلاغة كلها: على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجلب ة لبلوغ غرض المخاطبة بها.[3]

لقد كان الجاحظ واعيا بهذا اللون من الأبحاث البلاغية الذي يهتم بدراسة معايير إنتاج الخطاب البليغ، لذلك جعل مناط التفوق البلاغي في كيفية الأداء، وطريقة التبليغ، حيث تتحقق قوة التأثير، وفعالية الإقناع، والدهشة، الانبهار.

1-البيان عند الجاحظ:

تفرغ الجاحظ لدراسة البلاغة والبيان، حيث وضع كتابه (البيان والتبيين) الذي جعل فيه الملاحظات العرب البيانية وأشار إلى تفاوت

الكلام بتفاوت السماعية، حيث يقول:«قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، محجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة...وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها»[4]

ا-ماهية البيان: يقول الجاحظ معرفا البيان: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ماكان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع. »[5]

ويبدو أن الجاحظ قد كان متأثرا في تعريفه للبيان بالإمام الشافعي، الذي عاصره وكان على اطلاع بما يصنّفه حيث ورد مفهوم البيان لديه في قوله:«البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة، أنها بيان لمن خوطب بها، ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب. »[6]

يظهر لنا من تعريف الإمام الشافعي أنه يلتقي مع الجاحظ في أن البيان (اسم جامع)، ويفترقان في أن البيان عند الجاحظ (أدلة) مهما

كان نوعها، ومن أي جهة هي، بينما البيان عند الشافعي (مراتب) بعضها أشد تأكيد بيان من بعض.

ب- قيمة البيان ووظيفته: يجعل الجاحظ البيان من أعظم وأجلّ النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان وهذا واضح جليّ في قوله عز وجل: «الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان»[7] بل جعل البيان العربي مما فضل الله به العرب على سائر الأمم، فقال: «ولفضل الفصاحة، وحسن البيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه، وأكرم رسله من العرب، وجعل لسانه عربيا، وأنزل عليه قرآنا عربيا كما قال تعالى:(بلسان عربي مبين). الشعراء195).»[8]

وقال في موضع آخر منبها إلى فضل البيان وقيمته: «البيان من نتاج العلم، والعيّ من نتاج الجهل، وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم... »[9]

ولقد جعل الجاحظ وظيفته البيان من أهم أسباب الاجتماع والألفة «الذي جعل الله تعالى سببا فيها بينهم، ومعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومعرّفا لمواضع سدّ الخلّة ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة ولان أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة والأجرام الساكنة. »[10]

2- أصول إنتاج الخطاب البليغ:

أ – سلامة النطق : اهتم الجاحظ بالظاهرة اللغوية، و تناولها بالبحث والاستقصاء، كما اهتم بالعيوب النطقية، أو ما أصبح ينعت

بعلم الأرطوفونيا l' orthophonie التي "هي الدراسة العلمية للاتصال اللغوي وغير اللغوي في مختلف أشكاله العادية والمرضية تهدف إلى التكفل بمشاكل الاتصال بصفة عامة واضطرابات اللغة والكلام بصفة خاصة "[11] وذلك من منظور خاص، محددا أنواعها بدقة متناهية، ذاكرا الحروف التي تلحقها هذه الأمراض والأعضاء النطقية المسؤولية عنها، وبهذا يؤسس الجاحظ لعلم خاص قائم بذاته، و"يصبح رائدا في علم تقويم اللسان l'orthophonie الذي شاع في أيامنا هذه " [12]

تكلم الجاحظ عن عيوب النطق و ما يعترى اللسان من خلل، ومدى تأثيرها في البيان، فعلى من يتصدر للخطابة أن تكون آلاته النطقية سليمة، مبرأة من عيوب النطق و اللسان عذبة، لتتم العملية البيانية بنجاح ويتم التواصل إذ يقول :" البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب و رياضة و إلى تمام الآلة، وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق على الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب و تثنى به الأعناق، و تزيّن به المعاني."[13]

درس الجاحظ العيوب والآفات التي تعتري النطق، وتفسد الجهاز الصوتي، و تحجز عن الإفصاح و الإبانة، أو ما يمكن أن نسمّيه (شروط الخطيب)، وأهم تلك العيوب التي شغلت حيز كبيرا من دراسته ما سماه (اللثغة)، و بيّن الحروف التي تدخلها و هي أربعة " القاف

والسين و اللام والراء ....فاللثغة التي تعرض للسين تكون تاء، والثانية اللثغة التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف ظاء... "[14]

و قد بحث الجاحظ، حلل عيوبا أخرى، مما قد يعتري أدوات النطق و يمنع من الإبانة، كالتمتمة و الفأفأء، و الضجم، والفقم...

ب- طلاقة اللسان : لقد تطرق الجاحظ إلى كل العيوب التي قد تعيق اللسان، و تمنع تدفقه في التعبير، والإفصاح مما في النفس، و من هذه العيوب: الحبسة و العقلة، واللكنة و الحكلة، حيث يقول: " ويقال: في لسانه حبسة، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء و التمتام، و يقال في لسانه عقلة، إذا تعقل عليه الكلام، ويقال في لسانه لكنة، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول، فإذا قالوا: في لسانه حكلة، فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللفظ، حتى تعرف معانيه إلاّ بالاستدلال "[15]

و مما يضر بطلاقة اللسان، أيضا وتدفقه : طول الصمت، إذا قال الجاحظ في هذا المجال: " طول الصمت يفسد اللسان، و قال بكر بن عبد الله المزني: طول الصمت حبسة، كما قال عمر بن الخطاب رحمة الله : ترك الحركة عقلة، و إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلّدت نفسه و فسد حسه، و كانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات و يأمرونهم برفع الصوت و تحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللهاة..."[16]

بحث الجاحظ في قضايا الصوت، و ما ينبغي أن يكون عليه الخطيب و البليغ من إتقان للأداء الصوتي، من حيث طبقاته، و سرعته و حجمه لأن صوت الخطيب مترجم عن مقاصده، و كاشف عن أغراضه، و هو المعوّل عليه في إيصال الخطبة إلى السامعين حيث يقول: " الصوت هو آلة اللفظ، و الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، و لن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلّا بظهور الصوت ." [17]

3/- حسن اختيار الألفاظ :

يرى الجاحظ أن من أصول إنتاج الخطاب البليغ، إجادة الخطيب أو البليغ اختيار ألفاظه، لأن الألفاظ المتخيرة و المعاني العذبة الجميلة والمخارج السهلة و كل كلام له ماء و رونق، يؤثر في السمع و النفس على حد قوله: " متى كان اللفظ كريما في نفسه، متخيّرا

من جنسه، و كان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبّب إلى النفوس و اتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتحلت له القلوب، وخفّ على ألسن الرواة ، و شاع في الآفاق ذكره..." [18]

بناء على ورد في قول الجاحظ، ينبغي على البليغ أن يراعي عند اختيار ألفاظه عدة أمور منها:

أ - تجانس الحروف و الألفاظ: تحدّث الجاحظ عن صفات الألفاظ، فعرض لحروفها، فلاحظ أنّ منها ما لا يقترن بعضه إلى بعض

في الكلام، لأنّها إن اقترنت أحدثت ثقلا و تنافرا في الحروف الكلمة الواحدة إذ يقول: " فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير، و الزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا ذال، بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير و قد يكتفي بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجرى ."[19] عرض لتلاقي الكلمة مع جارتها، فلاحظ أن من الألفاظ ما يتنافر بعضه مع بعض فقال: ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر، لم يستطيع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. "[20] فإذا كانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين الخصم و خصمه.

ب / - تجنب ما قبح من لفظ : يرى الجاحظ أن الكلام البليغ يجب أن يكون خال من قبيح الألفاظ صوتا و معنى، لأنه إذا ترددت مثل هذه الألفاظ على السمع فإنها تلتصق بالذهن، وتعلق باللسان، وتؤلفها الأسماع ، فيفسد الذوق في اختيار الألفاظ والصيغ، ولهذا ينصح الجاحظ البليغ بمجالسة العلماء ومخالطة الأدباء، ومطالعة كتب الحكماء فيقول: " اعلموا أنّ المعنى الحقير الفاسد، والدنيء الساقط، يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرّخ ... فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه، لأن اللفظ الهجين الرديّ، والمستكره الغبيّ، أعلق باللسان، وآلف للسمع، وأشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشريف، والمعنى الرفيع الكريم..."[21]

جـــ/ تجنب الغريب الوحشي والمتبدل السوقي: ينبغي أن يراعي البليغ عند اختبار اللفظ، أن تكون فوق المتبدل السوقي بعيدة عن الغريب

الوحشي ، و يقول الجاحظ في هذا الجانب : " و كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ، و ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعربيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، و كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات "[22]

ومما ساقه من أمثلة في هذا الموضع مارواه عن أبي علقمة النحوي، قال أنه "مرّ ببعض طرق البصرة، و هاجت به مرّة، فوثب عليه قوم، فأقبلوا يعضّون إبهامه و يؤذنون في أذنه، فأفلت منهم فقال: مالكم تتكأكأون علي كما تكأكأون على ذي جنّة، افرنقعوا عنّي."[23]

وفي حديثه عن البليغ التام فيقول: " هو من هجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي."و يقول في موضع آخر: " إياك والتوعّر، فإن التوعّر يسلمك إلى التعقيد، و التعقيد هو الذي يستهلك معانيك، و يشين ألفاظك، و من أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما و يهجنهما."[24]

د – مطابقة الحال وما يجب لكل مقام مقال: أشار الجاحظ إلى تفاوت الكلام بتفاوت سامعيه، لأنّ الناس طبقات، ولهذا يجب أن يستعمل اللفظ عند القوم الذين يألفونه، و يجري في مخاطباتهم، فإنّ لكل صنف من الناس كلمات حضيت عندهم، فللكتّاب ألفاظ وللشعراء ألفاظ، وللخاصة ألفاظ كما للعامة، فعلى البليغ أن يتجنب

الألفاظ التي لا تناسب المستمعين، وأن تكون ألفاظه مطابقة للحال أو المقام، وذلك بأن يراعي أحوال السامعين و طبقاتهم، فلا ينبغي أن يكلم العامة بكلام الخاصة، و كذلك العكس، فيقول : " ينبغي التكلم أن يعرف أقدار المعاني، و يوازن بين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.[25]

4/وضوح دلالة اللفظ على المعنى :

من أصول إنتاج الخطاب البليغ و معاييره عند الجاحظ أن تكون ألفاظ الخطاب واضحة الدلالة على المعنى، و نجده يقول في الجانب:"على قدر وضوح الدلالة و صواب الإشارة، و حسن الاختصار، و دقة المدخل، يكون إظهار المعنى، و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح ، و كانت الإشارة أبين و أنور، كان أنفع و أنجع ..."[26]

و بالتالي يجب على الخطيب أو البليغ مراعاة ما يلي:

أ – موافقة لسان العرب سننهم في مخاطباتهم: لا بد للخطاب أن يكون جاريا، وفق ضوابط و قواعد العربية، خاليا من اللحن على المستويين الإعرابي و الصرفي، لأن اللحن يفسد المعنى، و ربما يؤدي إلى المعنى مضاد، يسوق لنا الجاحظ في هذا المجال ما جرى من حوار بين أبي الجهير الخراساني النخاس و الحجاج حين قال له:" أتبيع الدواب

المعيبة من جند السلطان ؟ قال : شريكاتنا في هوازها، وشريكاننا في مداينها، و كما تجيء نكون، قال الحجاج : ما تقول، ويلك؟ قال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطاء و الكلام العلوج بالعربية، حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول؟ شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن، يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها ."[27]

لا يرفض الجاحظ اللحن نهائيا ، بل يستحبه يستملحه، من ذلك نوادر وملح العوام و المولدين، فيجب أن تروى تلك النوادر ملحومة كما وردت، لأن إن أعربت فسد الغرض الذي سيقت من أجله ،إذ يقول :" إن الإعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ،لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصور و ذلك المخرج و تلك العادة، فإذا دخلت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسخفه و بعض كلام العجمية التي فيه- حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدّلت صورته."[28]

ب/- استعمال الفصيح والأفصح من الألفاظ: يجدر بالخطيب أو البليغ أن يستعمل من الألفاظ ما تكون دلالته على المعنى المراد أوضح من مرادفه أو غيره، فهذا يعدّ مقياس الفصاحة عند الجاحظ، كذلك يجب عليه أن يستعمل ما ورد في الخطاب البليغ من قرآن أو حديث، أو كلام الأعراب الخلّص شعرا أو نثرا. ذلك أنّ كلام العرب في طبقات، فمنه الفصيح و الأفصح ومنه المرذول المتروك. ومن شواهد الأصل في إنتاج الخطاب البليغ، مارواه

الجاحظ عن أبي سعيد عبد الكريم بن روح قال:" قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنّما الفصاحة لنا أهل مكّة، فقال ابن مناذر: أمّا ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسومون القدر برمة،وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول قدر ونجمعها على قدول، وقال الله عزّ وجلّ: "وجفان كالجوابي وقدور راسيات"[سبأ/13] وأنتم تسومون البيت إن كان فوق البيت عليّة، وتجمعون هذا الاسم على علالي، ونحن نسمّيه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف، وقال الله تعالى:" غرف من فوقها غرف مبنيّة[الزمر/20] وقال:" وهم في الغرفات آمنون"[سبأ/37] وأنتم تسومون الطّلع الكافور والإغريض، ونحن نسمّيه الطّلع، وقال الله تعالى:"ونخل طلعها هضيم"[الشعراء/148] فعد عشرة كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا"[29]

هكذا يؤكّد الجاحظ فيما سبق على أن أنقى مورد الفصاحة يمكن للبليغ أن ينهل منه هو القرآن الكريم ويليه الحديث الشريف، وما استقام من كلام الأعراب الخلّص.

جـ-استعمال أساليب التصوير البياني: المقصود بأساليب التصوير البياني، تلك الصوّر الفنية والأساليب الجمالية، القائمة على التشبيه وأنواعه، والمجاز والاستعارة وأنماطها، والكناية، التي تساعد على توضيح المعاني المجردة، وتصويرها وتجسيمها.

لقد اهتم الجاحظ بهذه الألوان البيانية، وبيّن فضلها في إيضاح المعنى، حيث يقول في التشبيه: "ولم نر في التشبيه كقوله، حين شبّه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين في بيت واحد، وهو قوله

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العنّاب والحشف البالي"[30].

أمّا عن فضل الكناية وبلاغتها يقول:« جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أو عن طريقة.»[31]

ويرى الجاحظ أن هذه الأساليب البيانية هي باب مفخر العرب في لغتهم وبه اتسعت وتميّزت عن غيرها من اللغات.

5/-توافق اللفظ والمعنى:

يعدّ اللفظ والمعنى من القضايا التي شغلت حيّزا واضحا، ونالت حظا وافرا في مصنّفات النقاد والبلاغيين، والأصوليين والمهتمين بتفسير القرآن. فمنهم من أخذ بالمعنى، ومنهم من انتصر للفظ، وبعضهم رفض الفصل بينهما. ويعدّ الجاحظ من أوائل البلاغيين الذين اعتنوا بهذه القضية. والمعروف عنه احتفاله بالألفاظ، وتقديمها على المعاني، لأنها مقياس الفصاحة والبلاغة، أما المعاني فهي في متناول الجميع، على حد قوله:«والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ،

والبدوي والتروي والمدني،وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنّما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير.»[32]

وبالرغم من تأييده اللفظ إلا أنه يوجب على الخطيب أو البليغ أن تكون ألفاظه ومعانيه متوافقة، حيث لايكون الإهتمام بالألفاظ على حساب الاهتمام بالمعاني فيقول: «فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المتعقّد، مغرقا في الإكثار والتكلف. فما أكثر

من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول، ومازال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة. فالمعنى يعد مقيم على استخفائه، وصارت العبارة لغوا وظرفا خاليا. »[33]

أ- تلازم اللفظ والمعنى: التلازم والملازمة أي عدم المرافقة، والالتزام يعني الاعتناق.[34] وكل لفظ له معنى يلازمه ويستدعيه. فعلى البليغ أن يراعي هذا الأصل، أي التلازم بين الألفاظ ومعانيها، فلا تكون الألفاظ قاصرة عن معانيها أو فاضلة عليها، لأن استعمال المشترك أو مترادف من الألفاظ يؤدي إلى اللّبس، وعدم الوضوح، إذ يقول الجاحظ مقررا ما سبق: «أعجب الألفاظ عندك ما رق وعذب، وخفّ وسهل، وكان موقوفا على معناه، ومقصورا عليه دون ماسواه. لا فضل، ولامقصر، ولامشترك ولامستغلق، قد جمع خصال البلاغة، واستوفى خلال المعرفة. »[35]

فواجب إذن على الخطيب أن يقارب بين الألفاظ ومعانيها، المعروفة عند أهل هذا اللسان، وفق قواعدهم في مجاري كلامهم، وسننهم في مخاطباتهم.

ب/- تطابق اللفظ والمعنى:جاء في لسان العرب لابن منظور: تطابق الشيئان: تساويا، وطابقت بين الشيئين: إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما[36]. وتطابق اللفظ والمعنى بأن يكونا من طبقة واحدة، "فلكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكلّ نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال.»[37] فعلى الخطيب -إذن- أن يطابق بين ألفاظه ومعانيه، وأن لا يخلط بين طبقات الكلام، لأن ذلك يعيبه ويهجنه على حدّ قول الجاحظ: «من أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونها عما يفسدهما ويهجنهما[38].

إن هذا التطابق بين الألفاظ ومعانيها من أهم وسائل الإبانة والإيضاح، ومن ثم التأثير في المخاطبين و إقناعهم و استمالة قلوبهم.

6/- إقناع المتلقي و التأثير فيه :

تعد عملية الإقناع و التأثير في المستمع غاية كبرى، سعى إليها الجاحظ في كل ما درس وحث، ابتداء من مباحث جهاز النطق وعيوبه الخلقية والنطقية، مرورا بشروط الخطاب، وانتهاء بالأحوال والمقامات

الخطابية، مع ما يتطلبه ذلك كله من ثقافة ومعرفة بالأساليب والصيغ اللغوية، والأدوات الحجاجية، وقد وضع الجاحظ بعض الشروط في عملية التلقي لكل من الخطيب والمستمع.

أ/- ما يجب على الخطيب اتجاه المستمع: يجب على المتكلم (الخطيب) مراعاة المستوى المعرفي والثقافي للمتلقي، وأن يخاطب شرائح الناس على قدر عقولهم وطبقاتهم، وكذلك من الأمور التي تساعد المستمع على فهم وإقناعه والتأثير فيه، مراعاة الخطيب لتعبيرات الوجه، والعناية بنظرات العين، والاهتمام بالمظهر، فيقول في هذا الغرض:«وزين ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته،أن تكون الشمائل موزونة والألفاظ معدّلة، واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والسمت، والجمال وطول الصمت، فقد تم كل تمام، وكمل كلّ الكمال. »[39]

ب/- مايجب على المستمع تجاه الخطيب: يجب على المستمع تجاه المتكلم أن يكون في مستوى فهم ما يلقي عليه من خطاب فليس«يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الأمور، إلاّ علام حكيم، ومعتدل الأخلاط عليهم، وإلا ّالقوي المنة الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم، والسوداء الأكبر. »[40]

إنّ من أسباب حدوث التواصل ونجاح العلمية البيانية حسن تفهم السامع عن المتكلف حيث يقول الجاحظ مؤكدا هذا الأمر:"يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع.»[41]

الهوامش :

1- عبد الله ابن المعتز: البديع، ص**25** .

2- أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين : تح، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط**7**،م**1/85-86**.

3- ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد: المثل السائر: تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، **1995**،**2 / 64**.

4- الجاحظ: البيان و التبين، **1/75**.

5- المصدر نفسه: **1/76**.

6-الشافعي محمد بن ادريس: الرسالة: تح، أحمد شاكر، المكتبة العلمية ، بيروت، ص**21**

7-القرآن: سورة الرحمان آية **1-4**.

8- رسائل الجاحظ: تح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص**237**.

9- الجاحظ: البيان والتبيين، **1/77**.

10- الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي،القاهرة، **1965**، ط**2**، م**1**، ص**44**.

11- محمّد حولة: الارطوفونيا، علم اضطرابات اللغة والكلام والصوت، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، **2007**، ص**13**.

12- محمّد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،**1994**، ص**114**.

13- الجاحظ: البيان والتبيين، **1/14**.

14- المصدر نفسه، **1/34**.

15- المصدر السابق: **1/39-40**.

16- نفسه: **1/272**.

17- نفسه: **1/79**

18- البيان والتبيين: **4/24**.

19- نفسه: **1/69**.

20- نفسه: **1/65-67**.

21- نفسه: **1/85-86**.

22- الجاحظ البيان و التبيين، **1/144**.

23-المرجع نفسه: **1/379-380**.

24 - نفسه.1/ 136.

25 - المرجع السابق، 138/1-139

26 - المرجع نفسه ، 75/1.

27 - نفسه ،161/1-163

28 - الجاحظ: الحيوان،282/1.

29 -الجاحظ: البيان والتبيين، 19/1.

30 -الجاحظ: الحيوان،53/3

31 -الجاحظ: البيان والتبيين، 88/1.

32 -الجاحظ الحيوان 131/3-132

33 -الجاحظ: الرسائل، 41/3-42.

34 - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، مادّة (لزم).

35 -الجاحظ: الرسائل، 63/3-64.

36 -ابن منظور: لسان العرب: مادة(طبق).

37 -الجاحظ: الحيوان، 39/3.

38 -الجاحظ: البيان والتبيين، 136/1.

39 -المصدر السابق، 89/1.

40 -المصدر نفسه، 90/1.

41 - المصدر نفسه ، 87/1

القرآن الكريم

المصادر والمراجع:

- أبو عثمان الجاحظ: البيان و التبين، تح : عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي القاهرة :1965

- الجاحظ: رسائل الجاحظ: تح: عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة .

- الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي،القاهرة.

ابن الاثير أبي الحسن علي بن محمد: المثل السائر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت، ط2، 1995.

- ابن منظور جمال الدين : لسان العرب ،تح، عبد الله الكبير ،دار المعارف ، القاهرة

- عبد الله ابن المعتز: البديع، تح أغناطيوس كراتشفسكي دار المسيرة ط2، 1979
- الشافعي محمد بن إدريس: الرسالة: تح، أحمد شاكر المكتبة العلمية بيروت.
- محمّد حولة: الارطوفونيا، علم اضطرابات اللغة والكلام والصوت، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- محمّد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1994.